الفصل الثالث
آداب الذكر

معلوم أن المذكور واحد، والذكر متنوع، والذاكرون كثيرون، تتفاوت هممهم، وتختلف منازلهم، وتتنوع درجاتهم فكيف نعظم المذكور، ويحسن الذكر، وننال العلا، ونفوز بالأجر؟.

إن سبيل ذلك هو التعرف على جملة من الآداب يجب مراعاتها ويحسن التمسك بها والاعتصام بأسسها، فالذاكر كلما أحسن تطبيق هذه الآداب كلما كان قلبه أكثر خشوعًا، وأعلى تدبرًا.

صيحة تقودك: نحو تحسين الطاعة، وتجويد الذكر، وهادٍ يدلك على ما يسمو به فكرك، ويطهر به قلبك، وينقى به لسانك، وتزكو به نفسك.

صيحة تناديك: أن انهض، واحرص، والتزم، وادفع شيطانك، واقمع هواك، واهجر دنياك، وهلم إلى رحاب مولاك.

صيحة تناديك: أن قم واستفد من سير الصالحين، وأحوال العابدين، وطرائق المخلصين، واعلم أنك في عبادة. لن تقبل منك إلا بثلاثة شروط:

١- الإسلام ولتحمد ربك ﷻ أن جعلك من أهله.

٢- المتابعة للنبي ﷺ ولتشكر مولاك أن جعلك من حزبه وأنصاره.

٣- والإخلاص ولتسأل الله ﷻ أن يكرمك به.

بيان وتوضيح

الأدب الأول - (الإخلاص): ويراد به أن ترغب بذكرك رضا الله وحده، فلا حظ في شهرة ولا مراءاة لمخلوق، قال ﷻ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾﴾ [الزمر]. ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. فالله سبحانه لا يريد منك إلا صدق توجهك، وحسن نيتك.

وقال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ**»[(١)] وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «**إن الله لا يقبل من مسمع ولا مقرئ ولا لاعب ولا داع إلا داعيًا دعاء ثابتًا من قلبه**»[(٢)] فأحضر قلبك، وأخلص في ذكرك واعلم أن الله وحده هو المستحق بالذكر، والأولى بالثناء، والأجدر بالطاعة، ولِمَ لَا؟ وكل خير من عنده، وكل نعمة من فضله.

واحذر أن يُلبس عليك الشيطان فتترك الذكر لاعتقاد عدم الإخلاص.

قال الفضيل بن عياض: «ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما»[(٣)]. فقوله: «ترك العمل لأجل الناس رياء»؛ لأن بعض الناس قد يُفتَحُ عليه بالذكر فيقول أخشى المراءاة هنا يأتي التحذير: تركك العمل خوفًا من الرياء هو عين الرياء، لأنك راعيت رؤية الناس لك ونظرهم إليك.

وقوله: «العمل لأجل الناس شرك» كذلك إذا فعلت العمل الصالح ليراك الناس فهذا هو الشرك الأصغر والإخلاص المعافاة منهما.

---

(١) أخرجه النسائي برقم (٤١٤) وحسنه الألباني، في الصحيحة برقم (٥٢).

(٢) الزهد، لابن المبارك (١/ ٢٠)، شعب الإيمان، للبيهقي (٢/ ٥٠).

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا علي القاري (٨/ ٣٤).

فلا تضيع العمل خوفًا من الناس أن يظنوا بك الرياء، ولا تعمل العمل مراءاة لهم[١].

وإليك قوله ﷺ: «مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»[٢].

وخذ هذه الهدية من الفاروق رضي الله عنه: «من خلصت نيته كفاه الله ما بينه وما بين الناس»[٣].

الأدب الثاني - تجديد التوبة ولزوم الاستغفار ليُبارك في عملك وذكرك: -

قالها طلق بن حبيب: «إن حقوق الله ﷻ أعظم من أن يقوم بها العباد، وإن نعم الله أكثر من أن تحصى ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين»[٤].

وقيل لحاتم الأصم: ما تشتهي؟ قال: أشتهي عافية يوم إلى الليل. فقيل له أليست الأيام كلها عافية؟ قال: «إن العافية يوم لا أعصي الله فيه»[٥].

الأدب الثالث: طلب العون من الله ﷻ: فلا بد أن تعلم أخي الذاكر أن التوفيق بيد الله وحده ولن تعان إلا بفضله، ولن تذكره إلا بعونه ولن تطيعه إلا بمدده، قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «**يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ**».

---

(١) موقع إسلام ويب «مقال لمحمد أحمد المقدم».

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٦٥) وابن ماجه برقم (٤١٠٥) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٩٤٩٠، ٩٥٠٠).

(٣) هناد بن السري في الزهد (٢/ ٤٣٦).

(٤) حلية الأولياء، لأبي نعيم (١/ ٤١٩).

(٥) أذكار وآداب الصباح والمساء، محمد أحمد المقدم، ص٣٣.

فَقَالَ «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لاَ تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ تَقُولُ اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أَتُحِبُّونَ أَنْ تَجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ قُولُوا: اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى شُكْرِكَ وَذِكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»(٢).

فما أجمل هذه النعمة أن يمن عليك المولى سبحانه بطاعة التوسل إليه سائلًا إياه العون على الذكر والطاعة والمعروف؛ لهذا احذر أن تلوث جوارحك بما يغضبه، فكيف تذكر اسمه وتخالف أمره؟ وكيف تعزم على طاعته وترتكب نهيه؟!

الأدب الرابع: الطهارة: إن عبدًا أقبل على مولاه، معظمًا له، مثنيًا عليه، مقدسًا له، يجب أن يفعل هذا وهو على أحسن الأحوال وأطيبها، لهذا ينبغي أن تنظف فمك بالسواك ونحوه، وأن تكون على وضوء، وليس هذا بشرط لثبوت السنة بأن النبي ﷺ كان يذكر الله على كل أحيانه، ولكن تدبر حديثه الآخر، وفيه: أن بعض أصحابه ﷺ سلموا عليه فتيمم من جدار الحائط ثم رد عليهم(٣).

الأدب الخامس: استقبال القبلة: كان من هديه ﷺ استقبال القبلة في الذكر والدعاء كما في يوم بدر وغيره قال الإمام النووي: «ينبغي أن يكون الذاكر على أكمل الصفات، فإن كان جالسًا في موضع استقبال القبلة وجلس

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (١٥٢٤) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٥٢٢).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده برقم (٧٩٦٩) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٨٤٤).

(٣) وفي رواية: «كرهت أن أذكر الله إلا على طهر».
أخرجه أبو داود برقم (١٦) وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٨٣٤).

متذللًا متخشعًا بسكينة ووقار، ولو ذكر الله على غير هذه الأحوال جاز، ولا كراهة في حقه، لكن إن كان بغير عذر كان تاركًا للأفضل. والدليل على عدم الكراهة قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران].

وعن عائشة ﵂: «**كان رسول الله ﷺ يتكئ في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن وقالت: إني لأقرأ حزبي وأنا مضجعة على السرير**»(١).

واستقبال القبلة أثناء الذكر له علة: أنها هي الجهة التي أمرنا الله أن نتجه إليها ونحن في الصلاة، فما أعظمها من جهة لهذا ورد النهي عن أن يبصق الرجل إلى جهة القبلة كما جاء عن ابن عمر ﵄ أن رسول الله ﷺ رأى بصاقًا في جدار القبلة فحكه ثم أقبل على الناس فقال: «**إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِي فَلَا يَبْصُقُ قِبَلَ وَجْهِهِ فَإِنَّ اللَّه قِبَلَ وَجْهِهِ إِذَا صَلَّى**»(٢).

وقال ﷺ: «**إِنَّ لِكُل شَيء سَيِّدًا وَإِنَّ سَيِّدِ المَجَالِسِ قُبَالَة القِبْلَة**»(٣).

الأدب السادس: تحري الأزمنة الفاضلة: لقد شرع لنا المولى سبحانه وتعالى أذكارًا كثيرة تشمل اليوم كله ليله ونهاره، وما ذاك إلا ليكون المسلم على اتصال دائم بمصدر حياته، وخيره، وهداه، ولكي يظل حبل العبودية

(١) الأذكار، للإمام النووي، ص١٢.
(٢) متفق عليه: البخاري برقم (٤٠٦)، ومسلم برقم (٥٤٧).
(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» برقم (٢٣٥٤) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٦٤٥).

متصلًا بالمعبود ومن ثم تستقيم الحياة، ويسكن العبد، وتهدأ الجوارح، وتنعم المعيشة.

وكما فضل الله الأنبياء بعضهم على بعض، كذلك فضل بعض الأماكن على بعض، وبعض الأعمال على بعض، وبعض الأزمنة على بعض كوقتي الصباح والمساء.

لماذا: وقت الصباح والمساء؟

* لأن فيهما تبدو عظمة الخالق وبديع صنعه وواسع قدرته، فالكون يتغير من ليل إلى نهار ومن نهار إلى ليل ومن شمس تغرب إلى شمس تشرق والعكس.

لأن الله ﷻ أمرنا بالذكر في هذين الوقتين قال ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإنسان]، وهذا هو هدي النبي ﷺ.

* لأنهما وقتان يذكران العبد بالموت، وأهواله، والآخرة ومنازلها؛ فالصبح نقل من النوم (الموت) إلى اليقظة (الحياة)، والمساء نقل من اليقظة (الحياة) إلى النوم (الموت) فمن يقدر على هذا التغيير المبهر سوى الخالق سبحانه وتعالى؟

* لأنهما وقتان تختلف فيهما أحوال الناس وتتغير تغيرًا ظاهرًا إذ يخرج المرء من هذا ويدخل في هذا على اختلافٍ في الهمة والراحة والإنشغال. فسبحان الملك المنزه عن كل نقص، الذي لا يعتريه تغير ولا تبدل ألا يُورثك هذا تنزيهه وتسبيحه؟

* لأنهما محل الغفلة، وزمان التكاسل فعلى قدر انشغال المرء بدينه ومحبته لربه يكون الحرص على الذكر فيهما.

* لأن في ذلك مخالفة للمشركين الذين كانوا يعبدون أصنامهم في الكعبة بكرة وعشية فأمرنا ربنا سبحانه بالتسبيح في هذين الوقتين إعلاء للمعبود ﷻ.

* لأن لهما خصوصية؛ فهما بعد أفضل فريضتين وفيهما تحضر ملائكة الليل والنهار وما بين هذين الوقتين سعي، وبذل، وعمل، وهما وقت صعود العمل؛ لما ورد أن العمل يصعد أول النهار وآخره، فشرع الذكر فيهما ليكون بدء العمل واختتامه بالذكر فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِى صَلاَةِ الْعَصْرِ وَصَلاَةِ الْفَجْرِ . . . الحديث**»(١).

ولا ريب أن الذكر بعد صلاة الصبح هو أشرف أوقات الذكر وذلك لحضور الملائكة فيهما كما قال ﷻ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾ [الإسراء].

وقال علقمة بن قيس: بلغنا أن الأرض تعج إلى الله ﷻ من نومة العالم بعد صلاة الصبح»(٢).

وقال مسعر بن كدام عن المروءة: هي التفقه في الدين، ولزوم المسجد إلى أن تطلع الشمس(٣).

ولم لا تغتنم بشرى النبي ﷺ لك: «**مَنْ صَلَّى الغَدَاة فِى جَمَاعَةٍ ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ تَامَّة تَامَّة تَامَّة**»(٤).

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٢٢٣).
(٢) فيض القدير، للمناوي (٤/ ٣٠٦).
(٣) أذكار وآداب الصباح والمساء، محمد أحمد المقدم، ص٣٧.
(٤) سبق تخريجه.

لهذا كان السلف يكرهون الكلام في المسجد بعد ركعتي الفجر حتى تطلع الشمس. فلقد خرج ابن مسعود ﷺ على قوم يتحدثون بعد ركعتي الفجر فنهاهم، وقال: إنما جئتم للصلاة إما أن تصلوا، وإما أن تسكُتوا، وقال أبو عبيدة: كان عزيزًا على ابن مسعود ﷺ أن يتكلم بعد طلوع الفجر إلا بذكر الله»[١].

وعن عثمان بن أبي سليمان قال: إذا طلع الفجر سكتوا وإن كانوا ركبانًا.

وعن مجاهد قال رأيت ابن عمر ﷺ صلى ركعتي الفجر ثم احتبى فلم يتكلم حتى صلى الغداة[٢].

وقال الإمام النووي ﷺ أشرف أوقات الذكر في النهار بعد صلاة الصبح[٣].

قال الإمام ابن الجوزي ﷺ ناصحًا ولده: «فألزم نفسك يا بني الانتباه عند طلوع الفجر ولا تتحدث بحديث الدنيا فقد كان السلف الصالح رحمهم الله لا يتكلمون في ذلك الوقت بشيء من أمور الدنيا»[٤].

وقال الإمام ابن القيم ﷺ واصفًا حال السابق إلى الله بالخيرات: «فإذا فرغ من صلاة الصبح أقبل بكُليتِه على ذكر الله بالأذكار التي شرعت أول النهار، فيجعلها وردًا له لا يخل بها أبدًا، ثم يزيد عليها ما شاء الله من الأذكار الفاضلة أو قراءة القرآن حتى تطلع الشمس»[٥].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٩٤٣٨) وعبد الرزاق في مصنفه برقم (٤٧٩٥).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٢/ ١٥٢).
(٣) الأذكار، ص٦١.
(٤) رسالة إلى ولدي، ابن الجوزي، ص٩٣.
(٥) طريق الهجرتين، لابن القيم، ص٢٧١، ٢٧٢.

وبالصالحين نقتدي:

فهذا حسان بن عطية رحمه الله أحد ثقات التابعين كان إذا صلى العصر يجلس في المسجد يذكر الله تعالى حتى تغيب الشمس[١].

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يذكر عنه تلميذه ابن القيم أنه حضره مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار ثم التفت إليه وقال: «هذه غدوتي ولو لم أتغدى الغداء سقطت قوتي»[٢].

عن أبي وائل شفيق بن سلمة الأسدي قال غدونا على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يومًا بعد ما صلينا الغداة فسلمنا بالباب فأُذن لنا. قال: فمكثنا بالباب هنيهة - وقتًا قليلًا - قال: فخرجت الجارية فقالت: ألا تدخلون؟ فدخلنا. فإذا هو جالس يسبح. فقال: ما منعكم أن تدخلوا وقد أُذن لكم؟ فقلت: ظننا أن بعض أهل البيت نائم. قال: ظننتم بآل ابن أم عبد غفلة؟! -يعني نفسه- فإن أم عبد الهذلية أمه وهي صحابية رضي الله عنها وعنه قال: ثم أقبل يسبح، حتى إذا ظن أن الشمس متطلعة قال: يا جارية انظري هل طلعت؟ قال: فنظرت فإذا هي لم تطلع. فأقبل يسبح حتى إذا ظن أن الشمس قد طلعت، قال: يا جارية انظري هل طلعت؟ قال: فنظرت فإذا هي قد طلعت قال: الحمد لله الذي أقالنا يومنا هذا، ولم يهلكنا بذنوبنا»[٣].

❁ ❁ ❁

هيا نعتبر: هنا همة عالية، واستثمار صالح لوقت صالح، وفقه للأوقات، ومعرفة لأقدارها، فهذا الوقت الذي دخل فيه أبو وائل كان وقت طاعة يغفل

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٥/ ٤٦٧).
(٢) الوابل الصيب، ص: ٦٣.
(٣) أخرجه مسلم برقم (١٩٤٨).

عنه كثير من الناس، إما لكسل، أو فتور، أو شغل، أو نوم، وكما قال ابن القيم: «فإن أول اليوم بمنزلة شبابه وآخره بمنزلة شيخوخته»[١].

ومن شَب على شيء شاب عليه، فمن أمسك بزمام اليوم وهو أوله سلم له يومه كله بإذن الله، وقد قيل: «يومك مثل جملك إن أمسكت أوله تبعك آخره»[٢].

فُز بِدعوة الخير من معلم الخير ﷺ:

قال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا».

وكان ﷺ يبعث سراياه وجيوشه أول النهار»[٣].

ولهذا يقول ابن القيم: «من المكروه عند السلف النوم من صلاة الصبح إلى طلوع الشمس فإنه وقت غنيمة، وهو أول النهار ومفتاحه، ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم وحلول البركة»[٤].

من هنا نفهم صياح ابن عباس رضي الله عنهما في ولد له وهو نائم نومة الصبحة فقال: قم أتنام في الساعة التي تقسم فيها الأرزاق[٥]؟! وعلى الدرب سار عمر بن عبد العزيز رحمه الله الذي ثار على ولده النائم في هذا الوقت وقال له: الأرزاق تقسم وأنت نائم![٦].

---

(١) مفتاح دار السعادة، لابن القيم (٢/ ١٦).

(٢) فقه الأدعية والأذكار، عبد الرزاق بن عبد المحسن (٢/ ٤٦).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه برقم (١٢١٢) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٣٩٠٨).

(٤) مدارج السالكين، لابن القيم (١/ ٤٥٩).

(٥) زاد المعاد، لابن القيم (٤/ ٢٤١).

(٦) الفتوحات الربانية، لابن علان البكري (١/ ٦٦٠).

* **اغتنم الفوائد الصحية**: تلك الفوائد التي يجنيها الإنسان بيقظة الفجر حتى الشروق حيث تكون أعلى نسبة لغاز الأوزون (O_3) في الجو عند الفجر وتقل تدريجيًا حتى تضمحل عند طلوع الشمس ولهذا الغاز تأثير مفيد للجهاز العصبي وهو منشط للعمل الفكري والعضلي مما يبعث على النشاط والحيوية وترك الكسل[١].

الأدب السابع: تحري الأماكن الفاضلة: كالمساجد قال ﷻ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور].

وقال ﷺ عن المساجد: «**إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ ﷻ وَالصَّلاَةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ**»[٢].

ويقول الإمام النووي: «ينبغي أن يكون الموضع الذي يذكر فيه الله خاليًا نظيفًا، فإنه أعظم في احترام الذكر والمذكور، ولهذا مدح الذكر في المساجد والمواضع الشريفة وجاء عن الإمام الجليل أبي ميسرة رضي الله عنه قال: لا يذكر الله ﷻ إلا في مكان طيب». ولا يكره ذكره سبحانه في الطريق وإنما يكره الذكر في حال قضاء الحاجة، وعند الجماع، وأثناء خطبة الخطيب يخطب على المنبر، وعند النعاس».

الأدب الثامن: التدبر والفكر والرغبة والرهبة: وهذا هو روح الذكر ومقصوده، فالله يحب عبده الخاشع المتدبر، لأن التدبر يورث الخضوع والإجلال للمذكور ﷻ.

---

(١) مع الطب في القرآن الكريم، ص١٠٨.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٨٥).

قال النووي: «المراد من الذكر حضور القلب، فينبغي أن يكون هو مقصود الذاكر فيحرص على تحصيله ويتدبر ما يذكر ويتعقل معناه»[١]. وحثك الحسن البصري على التدبر بقوله: تفكُرُ ساعة خير من قيام ليلة.

وعن الفضيل قال: «الفِكرُ مرآة تريك حسناتك وسيئاتك»[٢].

وتواترت قصص الصالحين المنبهة لهذا الأدب، فلقد منع أحد العلماء تلميذًا له من قراءة القرآن، ثم سمح له بالقراءة بعد فترة، ولما سئل عن السبب قال: ما كنت أمنعه عن القرآن، وإنما عن لقلقة اللسان والغفلة عما فيه من البيان[٣].

فالله ﷻ لا ينظر إلى الأجساد بل إلى ما وقر في القلوب لقوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»[٤].

فعليك أخي الذاكر أن تتدبر ما تقول، فقليل من الذكر مع التدبر خير من كثيره مع السهو والغفلة.

يقول الإمام الشوكاني: «لا ريب أن تدبر الذاكر لمعاني ما يذكُرُ أكمل وأجر المتدبر أتم وأوفى، لكنه لا ينافي ثبوت الثواب لمن جاء بها من غير تدبر، ولم يرد تقييد الثواب بالتدبر والفهم»[٥].

---

(١) الأذكار، للإمام النووي، ص١٢، الفتوحات الربانية، لابن علان البكري (١/ ١٠٩) وما بعدها.

(٢) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي (٤/ ٤٢٤).

(٣) نور على نور، أبو طلحة محمد يونس عبد الستار، ص١٠٠.

(٤) أخرجه مسلم برقم (٦٧٠٧).

(٥) الفتوحات الربانية، لابن علان البكري (١/ ١٠٩) وما بعدها.

وكن واعيًا لقوله ﷺ: «أَكْثَرَ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَّاؤُهَا»[١] فاحذر وتنبه واعلم أن اللفظ العاري عن قصد المعاني لا يخرج عن كونه مجرد لقلقة باللسان، وهذا ينافي كمال القراءة، فلابد من حضور القلب حتى لا يكون حظ المرء منها القول دون تدبر وفهم، ونبينا ﷺ ما ندبنا إلى هذه الأذكار إلا وننال ثوابها لنعقل أهدافها، ونتدبر غاياتها لنحقق آثارها.

ومما ورد في التوراة: «يا عبدي أما تستحي مني، يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشي فتعدل عن الطريق، وتقعد لأجله وتقرؤه، وتتدبره حرفًا حرفًا حتى لا يفوتك منه شيء، وهذا كتابي أنزلته إليك انظر كم فصلت لك فيه من القول، وكم كررت عليك فيه ثم أنت معرض عنه أكنت أهون عليك من بعض إخوانك؟ يا عبدي يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك، وتصغي إلى حديثه بكل قلبك فإن تَكَلَم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأت إليه أن اكفُف وها أنا ذا مُقبِل عليك ومُحدِثَ لك وأنت معرض بقلبك عني أفجعلتني أهون عندك من بعض إخوانك»؟![٢].

والتدبر له شرطان: **حضور القلب في تحريره، وبذل الجهد في تكثيرة**[٣].

وما أروع قول القائل:

واعلَمْ بأنَّ طرقَ التطهيرِ ... كثيرةٌ عندَ ذوِي التنويرِ
أقربُها نفعًا طريقُ الذكرِ ... بسرعةٍ يزيلُ كلَّ سِتْرِ

---

(١) الجواهر الصحاح، أيمن محمود، ص١٤٠. نقلًا عن: تحفة الذاكرين، للإمام الشوكاني، ص٥٣، ٥٤.

(٢) أخرجه أحمد في المسند برقم (٦٦٣٣) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٧٥٠).

(٣) التذكرة في الوعظ، لابن الجوزي، ص: ٥٩.

لكنْ بشرطِ الخوفِ والحضورِ مَعَ ادِّكارِ هيبةِ المذكورِ
فمَنْ تُلكُ الغفلةُ والأمانُ في ذكرِه حَجَبَه الشيطانُ
وحالَ بينَهِ وبينَ ربِّهِ بقَذفِهِ وسَاوِسًا في قلبِهِ
وأَحْدَقتْ بِقلبِهِ غَشَاوةٌ فَلَمْ يَذُقْ للذكرِ مِن حلاوةٍ[1].

وقال القرطبي: «وهذه الأجور العظيمة إنما تحصل كاملة لمن قام بحق هذه الكلمات فأحضَرَ معانيها بقلبه، وتأملَهَا بفهمه واتضَحَت له معانيها، وخاض في بحار معرفتها وهذا هو الإحسان في الذكر». وصدق من قال: إنما المطلوب في الأذكار الخشوع والوقار[2].

وما أجمل قول علي ﷺ: «لا خير في عبادة لا فقه فيها، وقراءة لا تدبر فيها»[3].

الأدب التاسع: قطع الفكر الدنيوي عن القلب:

والمقصود به تهيؤ القلب قبل الدخول على من يطلع على السرائر، فتستحي أن تدخل عليه وقلبك مشغول مع غيره، أو تنطق بكلمات الثناء عليه وقلبك يثني على سواه، أو تتعوذ خوفًا من عذابه وقلبك خائف من عباده، أو تحمده وتشكره بلسانك وقلبك جاحد.

ولقطع الفكر الدنيوي عن القلب طريقتان، ذكرهما ابن القيم، فاسمع كلماته دواء ناجعًا شافيًا وكأنها قميص يوسف ألقي على أجفان يعقوب فأبصر كل قلب كان قد عمي، يقول رحمه الله: «من الذاكرين من يبتدئ بذكر اللسان وإن كان على غفلة، ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطأ على

(١) المشوق إلى ذكر الله، ص: ٢٥.
(٢) المفهم، للقرطبي (٧/ ٢٠) نقلًا عن تحفة الأبرار بفضائل الأذكار، ص٦٢.
(٣) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي (٢/ ٤٧).

الذكر، ومنهم من لا يرى ذلك ولا يبتدئ على غفلة، بل يسكن حتى يحضر قلبه فيشرع في الذكر بقلبه، فإذا قوى استتبع لسانه فتواطأ جميعًا.

فالأول: ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه، والثاني: ينتقل من قلبه إلى لسانه من غير أن يخلو قلبه منه، بل يسكن أولًا حتى يحس بظهور الناطق فيه، فإذا أحس بذلك نطق قلبه ثم انتقل النطق القلبي إلى الذكر اللساني، ثم يستغرق في ذلك حتى يجد كل شيء منه ذاكرًا، وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان وكان من الأذكار النبوية وشهد الذاكر معانيه ومقاصده»[١].

إذن ليس المطلوب أي ذكر بل ذكر خاص ينبع من القلب ليصل إلى الرب ويكون معه جمع هم، وتطليق دنيا، وخلوة ساعة وسِحرْ سَحَر؛ أخي، إذا غاب قلبك تاهت رسائلك في الطريق وإذا حضر وصلت أسرع من البرق[٢].

الأدب العاشر: إشعار القلب عظمة ما قد عزم عليه من ذكر ربه:

قال ﷻ: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، ولو لم يكن من فضائل الذكر غير هذه لكفتنا فضلًا وشرفًا، وفاضت علينا، إن ذكر الله لنا إن ذكرناه هو ذكره لنا واحدًا واحدًا برحمته وفضله، وتأييده ونصره ومغفرته وستره، وتوفيقه وبره واحدًا واحدًا بأسمائنا في الملأ الأعلى واحدًا واحدًا، وفي المقابل إذا نسي العبد ذكر المولى سبحانه نسيه الله ونسيان الله ﷻ له: إهماله وطرده من رحمته وحرمانه من بركته فالجزاء من جنس العمل فكما ترك العبد ذكر ربه تركه مولاه في عذاب الدنيا بتعسير أمره، وفي الآخرة بتعذيب روحه وبدنه، فما أقبح نسيانك لذكر من لا يغفل لحظة واحدة عن كرمك وسترك.

---

(١) الفوائد، ابن القيم، ص١٩٢.

(٢) جرعات الدواء، خالد أبو شادي، ص١٤٤.

قال ﷻ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

- أي ذكره أكبر من ذكركم إياه.

- من كل عبادة أخرى تتقرب بها إلى الله.

- مما تتصورون، أو يخطر ببالكم أو تحلمون.

- من دنياكم التي عليها تنافسون بكل ما فيها من فتن ومغريات.

- من أن تصمد أمام الذكر أي فاحشة أو منكر، فالذكر إذا وقع محق كل خطيئة ومعصية.

فما تزينت حياة العبد بأفضل من ذكره لله وتسبيحه وتهليله، فعن عبد الله بن شداد ﷺ أن نفرًا من بني عذرة أتوا النبي ﷺ فأسلموا: فقال النبي ﷺ: «**من يكفيهم؟**» قال طلحة: أنا. قال: فكانوا عند طلحة فبعث النبي ﷺ بعثًا فخرج فيه أحدهم فاستشهد ثم بعث فخرج فيه آخر فاستشهد، ثم مات الثالث على فراشه قال طلحة: فرأيت هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندي في الجنة، فرأيت الميت على فراشه أمامهم ورأيت الذي استشهد أخيرًا يليه ورأيت أولهم آخرهم. قال: فداخلني من ذلك فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فقال ﷺ: «**وما أنكرت من ذلك ليس أحد أفضل عند الله من مؤمن يعمر في الإسلام لتسبيحه وتكبيره وتهليله**»[(١)].

الأدب الحادي عشر: التفرغ عن الشواغل الظاهرة:

ويكون ذلك بالبعد عما يشوش الخشوع من ضوضاء وزحام ونحو ذلك والاجتهاد في الخلوة والانفراد وتسكين الجوارح وقت الذكر كصحابة

(١) أخرجه أحمد في المسند برقم (١٤٠١) وحسنه الألباني في الصحيحة برقم (٦٥٤).

النبي ﷺ الذين كانوا إذا سمعوا القرآن كأن على رؤوسهم الطير إجلالًا وتعظيمًا لما يسمعون.

ويعينك على التفرغ تَخَيُّل نفسك واقفًا بين يدي مولاك وكأنه يستعتبك. عبدي: أعطيتك العمر، والمال، والصحة فأين ذكرك لي، وشكرك لي؟

ومن الشواغل الظاهرة كذلك ما يُشوشُ على البصر فيزيغ وراء ما يلفت الأعناق ويخلب العقول وعلى المرء أن يجتنب الذكر في هذه الأماكن ما استطاع سبيلًا، ويقتدي في ذلك برسول الله ﷺ «في قوله لعائشة رضي الله عنها «**أَمِيطِي عَنَّا قِرَامَكِ هَذَا، فَإِنَّهُ لاَ تَزَالُ تَصَاوِيرُهُ تَعْرِضُ لِي فِي صَلاَتِي**»[(١)].

والقرام: ستر رقيق من صوف ذو ألوان ونقوش، وقد شغل النبي ﷺ عن صلاته فأمر بإزالته على الفور، بل ولما صلى في خميصة أهداها له أبو جهم ردها وقال ﷺ: «**اذْهَبُوا بِهَذِهِ الْخَمِيصَةِ إِلَى أَبِي جَهْمِ بْنِ حُذَيْفَةَ وَائْتُونِي بِأَنْبِجَانِيِّهِ فَإِنَّهَا أَلْهَتْنِي آنِفًا فِي صَلاَتِي**»[(٢)]. أي لما شغله الثوب عن حضور قلبه في الذكر رده على صاحبه. وقوله ﷺ: «**وَائْتُونِي بِأَنْبِجَانِيِّهِ**»: هي ثوب بلا أعلام، وإنما طلبها من أبي جهم وهو من أهدى إليه الخميصة أولًا؛ لأن النبي ﷺ رقيق المشاعر لم يُرِدْ أن يُؤثَر ردَ هديته عليه في قلبه[(٣)].

قال الطيبي: «فيه إيذان بأن للصور والأشياء الظاهرة تأثيرًا في القلوب الطاهرة والنفوس الزكية؛ يعني فضلًا عمن دونها»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٧٤).

(٢) متفق عليه: البخاري برقم (٣٧٣) ومسلم برقم (١٢٦٧).

(٣) جرعات الدواء، ص١٤٣. (الخميصة: ثوب يلفت النظر بما فيه من زخارف وعلامات).

(٤) فتح الباري، لابن حجر (١/ ٤٨٣).

الأدب الثاني عشر: خفض الصوت:

الذكر مناجاة ومن آدابها خفض الصوت؛ لهذا لما سأل الصحابة النبي ﷺ أقريب ربنا فنناجيه أما بعيد فنناديه؟ أنزل الله قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة].

ويقول ﷻ: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف].

قال ابن عباس: هو أن تسمع نفسك دون غيرك[1].

الأدب الثالث عشر: قراءتها مُجَودة:

قد ينكر البعض على غيره إذا رآه يُجودُ الأحاديث، وهذا خطأ؛ لأن التجويد أصلًا من السمات الأساسية لحروف اللغة العربية، والعرب ما كانوا ينطقون حرفًا إلا مجودًا حتى في الشعر، فالأولى الأحاديث والأوجب القرآن الكريم، فالتجويد من محاسن كلام العرب، ومن فصاحة المتكلم، وهذه كلها مجموعة فيه ﷺ.

فالتجويد إذًا من مقتضيات اللغة؛ ومن صفاتها الذاتية ومن طبيعتها فمن تركه فقد وقع في اللحن الجلي كما قال العلامة القاسمي: «إن تحسين الصوت بالذكر، وإعطاء كل حرف حقه، والتغني به، وقراءته بحزن كل هذا يجعل للذكر طعمًا آخر وأثرًا أوكد، ومن هنا تفهم لماذا أحب رسول الله ﷺ أن يسمع القرآن من غيره، وهو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه صاحب الصوت الندي الشجي الذي أبكى رسول الله ﷺ حين قرأ عليه صدر سورة النساء؛

(١) دليل الفالحين، لابن علان البكري (٤/٢٠٨).

لذا مدحه النبي ﷺ بقوله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»(١).

الأدب الرابع عشر: استحضار الموت:

فلعل هذا الذكر آخر طاعاتك، ولعل هذه الدقائق آخر عمرك؛ «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيب، أَوْ عَابِرِ سَبِيلٍ» وقال ﷺ: «جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّد، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيتٌ، واعملْ ما شئتَ فإنك مُجْزِيٌّ به، وأَحْبِبْ مَنْ شئتَ فإنك مُفارِقُه»(٢).

الأدب الخامس عشر: دعاء ختم المجلس:

وهو الدعاء الذي أخبرنا به النبي ﷺ بقوله: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»(٣). فلتحرص عليه أخي الذاكر عند ختام مجلس ذكرك، راجيًا عفو ربك، ورحمته.

وعن قتادة في قوله ﷻ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨]، قال: من كل مجلس.

وعن عبيد بن عمير قال: «الأواب الحفيظ الذي لا يقوم من مجلس إلا استغفر الله ﷻ».

وعن مالك من دينار أنه كان إذا حدث فأراد أن ينهض دعا بهذا الدعاء:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم (٣٥) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٣٠١).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط برقم (٤٢٧٨) وحسنه الألباني في الصحيحة برقم (٨٣١).

(٣) أخرجه أحمد برقم (١٠٤٢٠) والترمذي برقم (٣٣٥٥) وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٢٧٣٠).

«اللهم أحينا صادقين وأمتنا صادقين وابعثنا صادقين واجزِنَا يوم نلقاك كما تَجزِي عبادَك الصادقين».

وعن محمد بن سلام قال: كنا إذا جلسنا إلى يونس مضت في مجلسه مدائح ومثالب ومراثي وغزل وكان إذا فرغ يقول: والله لألقين على ما مضى الدافعات: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»[١].

وعن ابن عمر ﷺ قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا ولَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِى دِينِنَا ولَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا ولَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا ولَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لاَ يَرْحَمُنَا»[٢].

تم بحمد الله تكرمًا منه وتفضلًا الجزء الأول من هذه السلسلة:

«وقفات إيمانية مع الأذكار والأدعية النبوية»

ويليه بعون الله تعالى وإذنه: الجزء الثاني:

«الدرر المكنونة في الأذكار والأدعية المسنونة»

(١) الجامع لأخلاق الراوي، للخطيب البغدادي (٢/ ١٢٩).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٠٢) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٢٤٩٢).